

# الفصحى والعامية والاعتبارات القومية

بقلم يوسف كساروفني

يبرس على سبيل المثال .

يقول الدكتور مندور :

« وما كان التراث الفصحى القديم لم يعرف فن المسرحية الذي يعرض قطاعات من الحياة يتنفس فيها الشعب ويسخر من محنه وآلامه او يجسد مآسيه ، فقد رأينا أدباء الشعب المعروفين والمجهولين يكتبون للفنون الشعبية القريبة الشبه بفن المسرح مثل « الراجوز » و « خيال الظل » الذي كانت المسرحيات التي تؤلف له تسمى « بالبايات » وقد وصلتنا فعلا عدة بابات من بابات خيال الظل التي كتبها في عصر الظاهر بيبرس الكاتب الشعبي محمد بن دانيال ، وهي مكتوبة طبعاً باللفظة العامية . ومعنى ذلك ان الشعب قد كتب أدبه الخاص بلغة حياته وهي العامية دون ان يفقده ذلك احساسه بقوميته العربية او تمسكه بدينه الاسلامي او معرفته بلغة القرآن » (٤)

٣ - هذا وتداول اللهجات العربية المختلفة من شأنه زيادة الاحتكاك بينها مما يؤدي الى زيادة التفاهم الشخصي بين المتحدثين بهذه اللغات وتقاربهم ، والى تطعيم اللغة بما يكفل لها التجدد .

ويعبر عن هذا الرأي ادب عراقي من كربلاء هو الاستاذ عبدالله الخطيب اذ يقول :

« واحسن مثل لذلك فهم اللغة العامية المصرية في البلاد العربية التي انتشرت فيها الثقافة الشعبية المصرية . ونحن نعلم أن اللغة العامية المصرية انتشرت في عدة مجالات حيوية ومهمة ، انتشرت في المسرح والسينما بشكل واسع وكذلك في الغناء .. والان تسجل انتصارا آخر في الخطب السياسية المهمة ، وبعد ان انتشرت الافلام المصرية في العراق وانتشرت الاغاني ، رأينا بعد مدة قصيرة ان افراد مختلف الطبقات في العراق تفهم الفيلم المصري بصورة جيدة ، وتفهم النكتة المصرية بالرغم من تفاوت اللهجة المصرية عن اللهجة العراقية . ولو كان للعراق افلام سينمائية تعرض في مصر وغناء عراقي يسمعه المصريون ويحفظونه كما في العراق لكان العكس صحيحا كذلك ، ولو كان التبادل في مثل هذه المجالات الشعبية موجودا في البلاد العربية بصورة واسعة لتقلبتنا على هذه الصعوبة ، وانا اعتقد ان الجدار الذي يفصل بين اللغات العامية المختلفة جزئيا في البلاد العربية لا بد ان ينهدم عن قريب ، واعتقد كذلك ان عدم الوقوف امام انتشار اللغة العامية المنقحة في المجال الذي أقصده ( وهو الحوار القصصي ) يحقق غايتين ساميتين اولاهما تدعيم تكامل الفن القصصي ، وثانيهما تقارب اللهجات العامية في البلاد العربية والتغلب على عدم فهم لهجة بلد شقيق في جميع اجزاء الوطن العربي الكبير ، وهذا يمكن للشعوب العربية التفاهم بصورة واسعة » (٥)

٤ - وليس صحيحا ان العامية لم تظهر الا في عهود الانحلال والسيطرة الاجنبية ، فالاعراب لم يكن مظهر سابقا لعمامة العرب ، والدليل على ذلك تلك الروايات الكثيرة التي تحدثنا عن وقوع اللحن من العرب قبل الاسلام (٦)

١ - من الطريف ان كلا ممن ينتصرون للحوار الفصحى ومن يجيزون الحوار العامي يستخدمون احيانا الحجج نفسها لتأييد وجهة نظرهم . وفي مقدمة هذه الحجج اليوم علاقة اللغة المستخدمة بقضية الوحدة العربية .

فأنصار الفصحى يرون ان الاستعمار الذي جثم على الدول العربية زمنا طويلا كان همه القضاء على الفصحى لتمزيق شمل العرب ، وان تشجيع اللهجات المحلية ان هو الا تشجيع للحركات الانفصالية ، وان العربية الفصحى احدى مقومات القومية العربية واذا تسامحنا في اباحة الحوار بالعامية ، فقد يمتد هذا التسامح الى السرد نفسه . فالعامية ليست الا تركة مما ورثناه من عهود الاستعمار والانحطاط والتمزق . (١)

يقول الدكتور عمر فروخ :

« ان الدول المستعمرة في العصر الحديث استغلت نفرا من العرب في الاقطار العربية المختلفة ، وبوسائل مختلفة ، ليدعوا الى تدوين اللهجات العربية بالحرف العربي آنا وبالحرف اللاتيني آونة . ولقد استجاب هذا النفرا الى تلك الاستمالة الاستعمارية عن طيب قلب او بدافع من مصلحة طمعا بمال في الاكثر او بدافع آخر لست الان في سبيل تحليل بواعثه وعوامله ، فشنوها حربا لا هوادة فيها على اللغة العربية تحت ستار تسهيل اللغة مرة ، والحفاظ على الادب الشعبية مرة أخرى ، وتحت ستار التمشي مع التقدم في الحياة ، لان اللغة كائن حي يجب ان يتطور ويتقدم » (٢)

كما يقول الاستاذ نجيب محفوظ :

« اللغة العامية حركة رجعية ، والعربية حركة تقدمية ، فاللغة العامية انحصار وتضييق وانطواء على الذات لا يناسب العصر الحديث الذي ينزع للتوسع والتكامل والانتشار الانساني » (٣)

٢ - وفي الوقت نفسه يرى الفريق المعارض ان الاستعمار ما كان يشجع دراسة الفولكلور - ومن بينه لهجاتنا المحلية - لان التنبه اليه ان هو الا تنبيه السي مقومات الشخصية الوطنية وما اولاه الاستعمار من عناية بهذا الجانب كان من اهدافه الاساسية فهم عقليتنا حتى يعرف كيف يستعمرنا . ولهذا فان الاهتمام بأدبنا الشعبي سار جنبا الى جنب مع حركات الاستقلال الاخيرة في العالم العربي . فالاستعمار لم يكن يهدم الفصحى لحساب العامية بل كان يهدم اللغتين لحساب لغته هو .

هذا الى ان ملاحظنا سيرنا الشعبية التي رويت ودونت بغير الفصحى كانت من أهم الأنواع الادبية التي عبرت عن الوحدة العربية ، حيث يتحرك البطل من بلد عربي الى آخر لا تقف امامه حدود ، فهو في بلده ما دام نطق اهلها عربيا ، بل ان كثيرا منها عبر عن وحدة النضال الشعبي ضد الغزو الاجنبي ، كما نجد في سيرة الظاهر

بل يذهب محمود تيمور الى أن

« هذه العامية أقدم من الفصحى عهدا ، وأعرف منها الى العروبة نسبا ، وفي مقدورنا لو اتبحت لنا كتابة العامية ان نقول باننا نكتب العربية ولا مراة » (٧)

٥ - ومحمود تيمور يتفق بذلك مع الرأي القائل بأن اللهجات العامية ليست نتيجة فساد طرأ على الفصحى بل هي تطور للهجات عربية أخرى ، وبذلك لا يكون اختلاف النطق قبل الاسلام لحنا أي ليس خروجا على لغة رسمية معترف بها ، بل هو دليل على اختلاف اللهجات . وقد اختلف المحدثون حول هذا الاختلاف ونوعه وان لم يختلف الرأي حول وجود لهجات عربية متعددة قبل الاسلام .

أما **الرأي الاول** فيؤكد تعدد اللهجات قبل الاسلام ، وممن يعبرون عن هذا الرأي جورجى زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » الذي ذهب فيه الى ان اللغة العربية التي نحن بصدها هي لغة الحجاز التي وصلت الينا ، وكانت قبل الاسلام لغات عديدة تعرف بلغات القبائل وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب (٨) . كما ردد الرأي نفسه في كتابه « تاريخ اللغة العربية » ثم افرد فيه فصلا بعنوان « ما دخل اللغة العربية من اللفاظ الاعجمية في العصر الجاهلي » ويقول اننا :

« اذا رأينا لفظا في العربية لم نر له شبيها في العبرانية او الكلدانية او الحبشية ( التي تنتمي مع اللغة العربية الى اصل واحد ) ترجع عندنا انه دخيل فيها ، واكثر ما يكون ذلك اسماء العقاقير او الادوات او المصنوعات او المعادن او نحوها مما يحمل الى بلاد العرب من

بلاد الفرس او الروم او الهند او غيرها ، ولم يكن للعرب معرفة به من قبل ، أو أسماء بعض الاصطلاحات الدينية او الادبية ، واكثر ذلك منقول عن العبرية او الحبشية لان اليهود والاحباش من أهل الكتاب . ويقال بالاجمال ان العرب اقتبسوا من لغة الفرس اكثر مما اقتبسوا من سواها ، ولذلك رأينا أئمة اللغة اذا اشكل عليهم اصل بعض اللفاظ الاعجمية عدوها فارسية (٩) .

ثم يخصص فصلا عنوانه « ما لحق اللغة العربية من التغير في الفاظها في العصر الجاهلي » ومعنى هذا انه حتى اللهجة العربية التي قدر لها ان تصحح اللغة الفصحى فيما بعد كانت تتفاعل مع غيرها من اللغات بحكم قوانين الطبيعة والمجتمع .

كما نشر المستشرق مرجوليوت في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية - عدد يوليو سنة ١٩٢٥ - بحثا عنوانه « اصول الشعر العربي » رجع فيه ان هذا الشعر الذي نقرأه على انه شعر جاهلي انما نظم في العصور الاسلامية ثم نحلّه هؤلاء الواضعون المزيّفون لشعراء جاهليين . وقد بنى رأيه هذا على ضربين رئيسيين من الادلة : ادلة خارجية وادلة داخلية . ومن الادلة الداخلية الاختلاف بين لهجات القبائل المتعددة ، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية جملة واللغة الجنوبية . وهذا الاختلاف بنوعيه واضح فيما اكتشف من نقوش في شمالي الجزيرة العربية وجنوبها ، وليس لدينا حتى الان ما يجعلنا نفترض ان لغة القرآن كانت لغة ادبية في أي مكان قبل نزوله (١٠) .

ثم سلك الدكتور طه حسين سبيل مرجوليوت في كتابه « في الادب الجاهلي » فأعرب عن شكه في ان تكون اللغة العربية قد انتشرت في الجزيرة العربية على هذا النطاق الواسع قبل الاسلام ، ولهذا فالكثرة المطلقة لما تسميه ادبا جاهليا - بما فيه المعلقات - ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة بعد ظهور الاسلام (١١) . ثم يعرض لما يقال عن احتمال اتخاذ اهل الجنوب اللغة العدنانية لغة ادبية ، فينتهي لان السيادة السياسية والاقتصادية - التي من شأنها ان تفرض اللغة على الشعوب - قد كانت للححطانيين دون العدنانيين (١٢) . والقرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش لم يكذب تناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت كثيرا ، جد القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه واقاموا له علما او علوما خاصة (١٣) .

ويذكرنا هذا الرأي بكلام ابن الجوزي ( ٥١٠ هـ - ٥٩٧ هـ ) في الجزء الاول من كتابه النشر في القراءات العشر حيث يقول :

« كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، والسننهم شتى ، يعسر على احدهم الانتقال من لغته الى غيرها ، أو من حرف الى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتصميم والعلاج ، لاسيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتابا ، كما اشار اليه صلى الله عليه وسلم حيث اتاه جبريل فقال له ، ان الله يأمرك ان تقرء امتك القرآن على حرف ، فقال صلعم : أسأل الله معافاته ومعونته ، ان امتي لا تطيق ذلك ، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن السننهم لكان من التكليف ما لا يستطيع » .

كذلك ذكر ابن خلدون ( ٧٣٢ - ٨٠٨ هـ ) في مقدمته ان لغة حمير لغة اخرى مغايرة للغة مصر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها ، وطالب على هذا

محمد كزما

يقدم  
أهدت كتاب رزوي :

الزبية الحديثة

الم :

كله أم وكله أب !

كله معلم .. وكله معلم ..

كله منصف .. وكله منصف

الشن ٣ ليرات

منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

آخرها من عمل قريش . كما يرى احمد امين في الجزء الاول من كتابه « فجر الاسلام » .  
 « ان العرب في الجاهلية كانوا يعيشون قبائل ، وهذه القبائل تختلف بيئتها كثرة وقلة في اللفظ واللهجة ، فقد تستعمل قبيلة كلمة ولا تستعملها القبيلة الاخرى او تستعمل غيرها ... وهذه اللغات بسداً توحدها قبل الاسلام واستمر هذا العمل في الاسلام » ( ٢٥ ) .  
 ومحمد عطيه الابراشي من انصار هذا الرأي اذ يقول في كتابه « الاداب السامية » :

« في القرن السادس الميلادي كان معظم السكان في شبه جزيرة العرب يتكلمون لغة واحدة في كل مكان ، تلك اللغة كانت اهم اللهجات العربية ، وهي المعروفة الان باللغة العربية القديمة ... وكان الشعراء لا يستعملون الا لغة واحدة هي اللغة العربية ... ويظن بعض العلماء ان لغة الشعر عند معظم العرب كانت لغة صناعية ، وان الشعراء في جميع الجهات العربية قد استعملوا في شعرهم لهجة قبائل معينة في انشاد قصائدهم ... ولكننا حينما ننظر الى الشعر العربي الجاهلي نرى انه ليس هناك اثر لوجود فرق كبير من الوجهة اللغوية ، فمن التناقض ان ندعي ان كل هؤلاء العرب الغير على شرف قبائلهم الذين لا يعرف معظمهم القراءة والكتابة - قد استطاعوا ان يكتفوا انفسهم بالتعبير عن افكارهم وشعورهم بلغة اجنبية او صناعية . وقد اتفق علماء اللغة العربية

— التتمة على الصفحة ٧١ —

الاساس بالاستعاضة عن حركات الاعراب - التي كانت قد سقطت في لغة الحديث في عصره - بامور اخرى على غير المنهاج الاول في لغة مضر ( ١٤ ) .

واعترف لغوي مثل ابن جنبي ( ٣١٠ - ٣٩٢ هـ . ٩٤١ - ١٠٠١ ) بقساد لسان البادية في عهده ( ١٥ ) ، كما اعترف باختلاف اللغات في الجاهلية ( ١٦ ) ، ثم يقول انه يجب ان يتخير الانسان اقوى اللهجات واكثرها استخداما ، لكنه يستطرد قائلاً : الا ان انسانا لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئاً لاجود اللغتين . فاما ان احتاج الى ذلك في شعر او سجع فانه مقبول منه ، غير منعي عليه ( ١٧ ) .

ومعنى هذا ان اصحاب هذا الرأي - من القدماء قبل المحدثين - يقدمون بناء على نظريتهم حلولاً لمشاكل الاعراب او لبعض الاخطاء اللغوية .

اما **الرأي الثاني** فيعترف بتعدد اللهجات قبل الاسلام ، لكنه يرى ان لغة قريش كانت قد اصبحت قبل الاسلام لغة ادبية مشتركة الى جانب هذه اللهجات المتعددة ، ومن اصحاب هذا الرأي محمد الخضر حسين في كتابه « نقض كتاب الشعر الجاهلي » ( ١٨ ) ، وكذلك الأستاذ محمد لطفي جمعة في كتابه الشهاب الراصد ( ١٩ ) ويرون بناء على ذلك ان الشعر الجاهلي صحيح في جملته .

كما عبر عن هذا الرأي الدكتور علي عبد الواحد وافي اكثر من مرة في كتابه « فقه اللغة » فهو يقول :

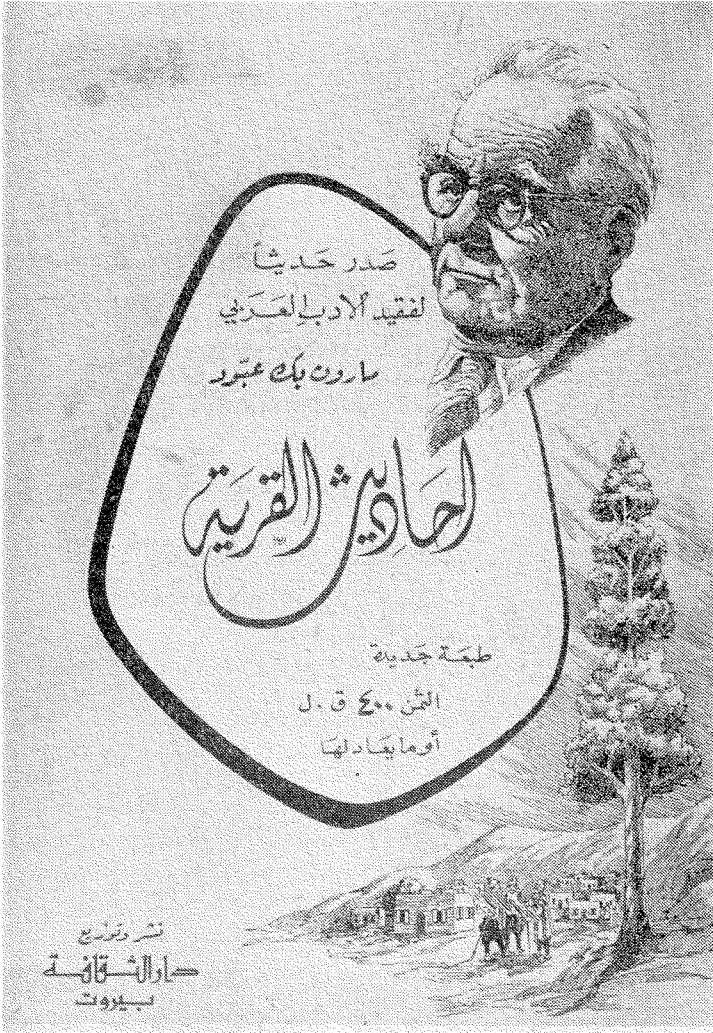
« وكما تقلبت العربية على اللغات اليمنية القديمة في ميادين التخاطب ، تقلبت عليها في ميادين الاداب والكتابة ، فاستأثرت بالشعر والنثر الادبي والخطابة والرسائل والتدوين وهلم جرا . غير انه لم يزل اللغة العربية بهذه البلاد في ميادين الاداب والكتابة ما نالها من تعريف في ميادين المحادثة ، بل ظلت خالصة فصيحة لا تكاد تختلف في شيء عن عربية أهل الشمال ( ٢٠ ) . فاصبح العربي ، ايا كانت قبيلته ، يؤلف شعره وخطابته ونثره الادبي بلهجة قريش فلا غرابة اذن في ان القرآن ، وقد جاء بلغة قريش ( ٢١ ) ، كان مفهومها لدى جميع القبائل ، وكان يؤثر في العرب جميعا ببيانه وبلاغته ، فقد نزل بعد ان تم للهجة قريش التغلب على اللهجات العربية الاخرى ، وبعد ان اصبحت لغة الاداب لسائر قبائل العرب ( ٢٢ ) .

كذلك يرى الدكتور ابراهيم انيس ان تعدد اللهجات العرب قبل الاسلام لا يمنع من توحيد لغتها الادبية النموذجية ، وهي اللغة التي كان الشعراء ينظمون بها شعرهم ليتباروا في سوق مثل سوق عكاظ .

« والا كيف كان من الممكن ان يفضل شاعر على شاعر في تلك المناسبات اذا كان المقياس مختلفا ، واداة القول متباينة » ( ٢٣ ) .

ويشبههم ببعض الاعيان في الريف المصري حين يفدون الى القاهرة فيتحدثون بلغة القاهرة ، فاذا عمدوا الى مقرهم الاصلي خاطبوا الناس بلهجاتهم . كذلك كانت الحال بين الخاصة من رؤساء القبائل ، يروونه عيباً ان يخطبوا في سوق كسوق عكاظ بتلك اللهجة الخاصة بهم ، كما يروونه عيباً ان يتحدثوا الى قبائلهم بغير تلك اللهجات ( ٢٤ ) .

اما **الرأي الثالث** فيعترف ايضا بتعدد اللهجات في الجاهلية ، غير انه يرى انها توحدت او تقاربت جدا قبيل الاسلام . ومنهم يعبرون عن هذا الرأي مصطفى صادق الرافعي في كتابه « تاريخ آداب العرب » حيث يرى ان تهذيب اللغة العربية مر بثلاثة ادوار قبل الاسلام كان



## الفصحى والعامية والاعتبارات القومية

— تنمة المنشور على الصفحة ٩ —

بالإجماع على أن لغة الشعر في الجاهلية كانت اللغة السائدة في شبه الجزيرة العربية — ويمكننا أن نقول: أن القبائل التي عرفت بالنبوغ في الشعر العربي يبدو أنها كانت متجاورة في الإقليم وفي العصر، ثم تفرق الشعراء بعد ذلك إلى طوائف كثيرة في بلاد واسعة الأرجاء... ومن الخطأ بين الأوروبيين القول بأن اللغة العربية هي لهجة قريش فحسب» ٢٦

أما الدكتور عمر فروخ فيرجح

« أن اللغة العربية الفصحى، لغة المفاقت كانت قد بدأت تتقهقر قبل قرن أو قرنين من ظهور الإسلام، ثم اتسع تدهورها وكان مقدرًا لها ما قدر لسائر اللغات القديمة كالسنسكريتية والإغريقية واللاتينية والجرمانية، لولا أن جاء الإسلام ونزل القرآن، فثبتت عند الحد الذي كانت قد بلغت إليه في تدهورها. بل إن أثر القرآن لم يكن قاصرا على تدهور العربية الفصحى فحسب، بل كان عاملا على رقيها بردها إلى ما كانت عليه من الصفاء والثانة قبل أن يبدأ تدهورها» (٢٧).

٦ — أما بعد الإسلام فإن التوسع الذي حققته الحضارة العربية — وليس عهد الانحلال — هو الذي أدى إلى عدة تطورات لغوية، أهمها ازدياد اللحن وانتشاره بين الناطقين بالعربية نتيجة لاختلاطهم بالشعوب الأخرى، مما أدى إلى وضع قواعد الصرف والنحو لحفظ اللغة الفصحى. يقول ابن خلدون:

« وإنما وقعت العناية بلسان مصر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فانقلب لغة أخرى» (٢٨).

كذلك رحبت اللغة العربية بدخول كثير من الألفاظ الأجنبية للدلالة على المظاهر الحضارية التي سبق أن عرفت بها الشعوب الأخرى كالفرس والرومان، وكان ذلك قد حدث من قبل في الجاهلية، لكنه تم هذه المرة على نطاق أوسع وأعنف. وقد صاغ العرب بعض هذه الألفاظ على أساليبهم كما أبقوا الفاظا أخرى بحالها (٢٩). فقد أجزى التعريب على غير أوزان العرب (٣٠).

وهكذا وجدت العامية منذ القرن الأول الهجري كظاهرة طبيعية. ويلاحظ لنا يوهان فك هذه العامية بأنها كانت لغة للتفاهم بأبسط وسائل التعبير اللغوي:

« فسبغت الحصول الصوتي، وصوغ القوالب اللغوية، ونظام تركيب الجملة، ومحيط المفردات، وتنازلت عن التصرف الإعرابي، واستغنت بذلك عن مراعاة أصول الكلمة وتصريفها، كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة في مواقع الكلام، للتعبير عن علاقات التركيب (٣١). وقد أجزى اللحن في الحديث، وفي هذا يقول الأستاذ عبد القادر المغربي:

« إن الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما استحسناوه، وافتنوا بجوازه، بل نصح بعضهم بأن يستعمل اللحن في مخاطبة المرء غيره، وفي تحديثه جلساءه لا في ما عدا ذلك» (٣٢).

وهكذا نجد أنه في نهاية القرن الثاني الهجري كان الجاحظ قد أولى اهتماما باللهاجات واللغات الخاصة، والسنة الحرف والمهن. فيوضح في كتابه « البيان والتبيين» أن كل مصر يتكلم على لغة من نزل من العرب. ويذكر أمثلة لفرق ما بين مكة والبصرة في الاستعمال

اللغوي. وفي كتابه « البخلاء» يسوق وصفا حيا للدوائر الأدبية في البصرة حوالي سنة ٢٠٠ هـ. كما يعرض صورة غاية « في الدقة» من الوجهة اللغوية لاسلوب المحادثة بالبصرة في ذلك العهد (٣٣).

حتى إذا جاء القرن الرابع الهجري كانت اللهجات الإقليمية في العراق وما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا، قد نضحت على لغة المتفهمين واكسبتها في كل إقليم لونا محليا ذا طابع خاص، بحيث أقدم المقدسي في كتاب رحلته « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» المكتوب عام ٣٤٥ هـ، وفي وصفه للعالم الإسلامي إذ ذاك على محاولة تمييز كل إقليم من الوجهة اللغوية، بذكر التعبيرات المحلية الخاصة به (٣٤).

وبهذا صارت العربية لغة فصحى على المرء أن يتعلمها، والدليل على ذلك أن المقدسي يقول: إن اسمي درجات العربية كانت في فارس، أي في أرض غير عربية اللغة. لأن الناس هناك كانوا يبذلون اجتهادا عظيما في دراستها. وبذلك صارت الفصاحة وسلامة اللغة أمرا محصورا في الثقافة المكتسبة (٣٥).

٧ — أما التدهور وقع للغة العربية الفصحى نفسها كأداة الكتابة والأدب، وكان هذا التدهور في اتجاهين، كان أولهما على صورة اهتمام مبالغ فيه باللغة نفسها وبالاسلوب على حساب المضمون كترصيعه بالمحسنات اللفظية — وهو اتجاه لا علاقة له بالعامية — وكان قد اشتد عوده في الواقع عندما وصات الحضارة العربية إلى قمة الترف وآذنت ببداية انحلالها في نهاية الدولة العباسية. والنثر المسجوع لم يكن من النادر استخدامه قبل الإسلام، لكن منذ القرن الرابع الهجري أخذت « تظهر الخطوات الأولى لذلك التطور الذي جعل النثر المسجوع يتحول إلى تلاعب لا طائل تحته بالألفاظ الجوفاء» (٣٧).

وبهذا صار التعبير اللاشعوري الذي كان يوحى به التأثير النفسي العميق تعبيرا اراديا محضا (٣٨). وأصبح الاسلوب كما يقول توفيق الحكيم، يستخدم اللغة استخدام الجوارح للعود في مجالس الانس والسكر بقصور هارون الرشيد (٣٩).

أما الاتجاه الآخر فقد جاء متأخرا عن الاتجاه الأول على صورة ركافة في الاسلوب لكثرة تجاهله قواعد الصرف والنحو مما جعله قريبا من العامية، وذلك على نحو ما نرى في تاريخ ابن أياس مثلا، وفي اسلوب مثل اسلوب الجبرتي الذي ما بقيت مؤلفاته الا لقيمتها التاريخية. يقول توفيق الحكيم:

« إن لغة الجبرتي في ذاتها، وقد كان من خيرة علماء الأزهر وقتئذ، لانصاع دليل على أن اللغة العربية نفسها قد سقطت فيما سقطت تحت سنايك جياذ اولئك البرابرة « المقول» (٤٠). ولا تعارض بين هذين الاتجاهين فهما نتاج بيئة واحدة. فالدكتور عبد اللطيف حمزة يصف اسلوب الجبرتي بأنه:

« لم يكن جاريا على نمط واحد، فهو مرة بليغ غير مسجوع وأخرى مسجوع، وفي ثالثة يبدو قريبا من العامية» (٤١).

كما يصف اسلوب ألف ليلة وليلة بأنه:

« أدنى إلى العامية وإلى كثرة الحشو وكثرة التضمين، والسبب التصريح دون التلميح. وذلك كله فضلا عن جريه مجرى السجع على طريقة ابن العميد والقاضي الفاضل».

لكنه يعود فيقول:

« إن خير ما يمتاز به أسلوب الليالي هو الوضوح والجرأة والصدق

- ٢ - الدكتور عمر فروخ : القومية الفصحى - دار العلم للملايين - بيروت - سنة ١٩٦١ - ص ٩٩ .
- ٣ - مجلة صباح الخير - القاهرة - العدد ٦ - ١٦ فبراير سنة ١٩٥٦ - ص ٥٠ .
- ٤ - الدكتور محمد مندور : المسرحية بين العامية والفصحى والشعر - مجلة الكاتب - القاهرة - العدد ٩ - ديسمبر سنة ١٩٦١ - ص ٥٨ .
- ٥ - عبد الله الخطيب : استعمال اللغة العامية في الحوار القصي - الاديب - اكتوبر سنة ١٩٥٦ - ص ٦٦ .
- ٦ - الدكتور ابراهيم انيس : مستقبل اللغة العربية المشتركة - ص ١٤ .
- ٧ - محمود تيمور - مشكلات اللغة العربية - ص ١٨٨ - ١٨٩ .
- ٨ - جرجي زيدان : تاريخ ادب اللغة العربية - مطبعة الهلال - القاهرة - سنة ١٩٣٦ - ط ٣ - ج ١ - ص ٣٥ .
- ٩ - جرجي زيدان : تاريخ اللغة العربية - مطبعة الهلال - القاهرة - سنة ١٩٠٤ - ص ٦ .
- ١٠ - D. S. Margoliouth : The origins of Arabic Poetry, Journal of The Royal Asiatic Society, July 1952, p. 447 - 449 .
- ١١ - طه حسين : في الادب الجاهلي - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - سنة ١٩٣٣ - ص ٦٣ .
- ١٢ - المرجع السابق - ص ٩٨ .
- ١٣ - المرجع السابق - ص ٩٤ .
- ١٤ - ابن خلدون - المقدمة - المكتبة التجارية - القاهرة - ص ٥٥٧ - ٥٥٦ .
- ١٥ - ابن جنى - الخصائص - تحقيق محمد علي النجار - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - سنة ١٩٥٥ - ج ١ .
- ١٦ - المرجع السابق - ص ٢ .
- ١٧ - المرجع السابق - ص ١٢ .
- ١٨ - محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي - ص ٩٢ ، ٩٤ .
- ١٩ - محمد لظفي جمعة : الشهاب الراصد - ص ١٥٤ .
- ٢٠ - علي عبد الواحد وافي - فقه اللغة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط ٢ - سنة ١٩٤٤ - ص ٦٢ .
- ٢١ - المرجع السابق - ص ٨٤ .
- ٢٢ - المرجع السابق - ص ٨٦ .
- ٢٣ - الدكتور ابراهيم انيس : في اللهجات العربية - مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة ط ٢ - سنة ١٩٥٢ - ص ٢٢ .
- ٢٤ - المرجع السابق - ص ٢٩ .
- ٢٥ - احمد امين : فجر الاسلام - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - سنة ١٩٢٨ - ج ١ ص ٦٢ .
- ٢٦ - محمد عطية الابراشي : الاداب السامية - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - سنة ١٩٤٦ - ص ١٠٨ - ١١٠ .
- ٢٧ - عمر فروخ : القومية الفصحى : ص ٨٢ ، ص ١٨٨ - ١٩٢ .

والصراحة وشدة الاسر « (٤٢) . وهذا هو الذي أعطى الكتاب - الى جانب مضمونه - شهرته العالمية .

وقد تدهورت العامية كما تدهورت الفصحى ، منذ أن أصبح عوام الاتراك هم أصحاب الكلمة في قصر الخليفة ببغداد في نهاية الدولة العباسية (٤٣) . وكان المعتصم قد بدأ هذا التقليد حين اشترى كثيرا من هؤلاء الاتراك و ألف منهم قوائمه المحاربة . ذلك انه في عصور الانحطاط كما تدهور الفصحى تدهور العامية ، فتقل مفرداتها ، وتقص عن التعبير عن حاجاتها ، ويقف تغيرها وتطورها الدائبان ، وقد يصل الامر الى انكماشها واضمحلالها - كما حدث كثيرا في التاريخ - وتصبح السيطرة نهائيا للغة الفاتحين . لهذا لم تنجح اللغة العربية من هذا المصير الا بفضل ما أبدته من مقاومة سواء عن طريق تراثها الفصيح او عن طريق تراثها الشعبي حين انزوت الفصحى - عدة قرون - من ميدان الادب المعبر عن وجدان الشعب ، فتولت عنها لهجاتها تلك المهمة كأنها جيوب للمقاومة او مراكز اخرى للدفاع (٤٤) .

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه في كتابه « الادب المصري » :

« من الادب الشعبية التي عرفتها الديار المصرية - فيما خلا الف ليلة وليلة - ادب السير ، مثل سيرة عنتره وسيف بن ذي يزن والزير سالم وسيرة بني هلال وسيرة الظاهر بيبرس وغيرها .

وقد تسلمت مصر هذه السير جميعها بعد العصر الفاطمي او بمبارة اخرى بعد ان اصبح السلطان الفلطي في يد غير العرب . افلا يدل ذلك اذن على ان مصر بعد ان تم اسلامها وتم استعراؤها ارادت ان تقف امام الدول غير العربية موقف المؤمن بشخصيته ، الشاعر بذاتيته ، الحريص على التعبير عن ذلك كله ؟

ثم ما يلبث ان يجيب بقوله :

« بلى - وجدت مصر في جميع السير التي اشرنا اليها انتصارا للعروبة ، واستمساکا بها ، واطلاصا لها وللإسلام « (٤٥) .

يوسف الشاروني

القاهرة

المصادر والتعليقات :

- ١ - عبر عن هذا الرأي كثيرون من بينهم : ابراهيم الابياري ورضوان ابراهيم في كتابيهما : أزمة التعبير الادبي بين الفصحى والعامية - دار الطباعة الحديثة - سنة ١٩٥٨ . احمد بهاء الدين : مجلة اخر ساعة - ٩ مايو سنة ١٩٦٢ . عبد الرحمن البزاز : الفصحى عنوان وحدتنا - مجلة العربي بالكويت - العدد ٤٦ - سبتمبر سنة ١٩٦٢ - ص ١٩ . يحيى حقي : كتب للجميع - العدد ١٥ - مارس سنة ١٩٦٠ .

تأليف خلدون ساطع الحصري

صدر حديثا :

## ثورة ١٤ تموز وحقيقة الشيوعيين في العراق

طبعة موسعة : العهد القاسمي ، علاقة القومية الاشتراكية العربية بالشيوعية

دار الطليعة - بيروت ص.ب ١٨١٣

صدر عن :

## مكتبة المعارف في بيروت

شارع الممرض ص.ب ١٧٦١

\*\*\*

|      |   |   |
|------|---|---|
| ق.ل  | ٢٥٠   | طه حسين ، والشيخان<br>بقلم محمد عمر توفيق |
| ١٢٠٠ | قصة الادب في الاندلس جزآن<br>بقلم محمد عبد المنعم خفاجه |   |
| ٣٥٠  | مختارات سلامة موسى<br>بقلم سلامة موسى                   |   |
| ١٥٠  | ما هي النهضة ؟<br>بقلم سلامة موسى                       |   |
| ٥٠٠  | عالم شتاينيك الرحيب<br>ترجمة عبد اللطيف شراره           |   |
| ٢٠٠  | التخطيط الاقتصادي<br>ترجمة الدكتور عبد الرحمن ياغي      |   |
| ٦٠٠  | عقدة اوديب<br>ترجمة جميل سعيد                           |   |
| ٢٠٠  | دراسات في النقد<br>ترجمة الدكتور عبد الرحمن ياغي        |   |
| ٥٠٠  | كيف تساعد ابناءك في المدرسة<br>ترجمة سميرة عزام         |   |
| ١٥٠  | النفط المنتهب « قصائد من العراق »<br>بقلم عدنان الراوي  |   |
| ٢٥٠  | شموع المعبد « شعر وجداني »<br>بقلم فوزي عطوي            |   |
| ٢٠٠  | دفتر الحب « شعر منشور »<br>بقلم هند سلامة               |   |
| ٢٥٠  | رنيم<br>بقلم نبية صقر                                   |   |
| ٤٥٠  | ألوان من الحب<br>بقلم انيس منصور                        |   |
| ٨٠٠  | شيء في صدري<br>بقلم احسان عبد القدوس                    |   |
| ٥٠٠  | في بيتنا رجل<br>بقلم احسان عبد القدوس                   |   |
| ٥٠٠  | الشقيقتان « درب الآلام »<br>بقلم تولستوي                |   |
| ٣٠٠  | فن الحب والحياة<br>بقلم سلامة موسى                      |   |
| ٢٥٠  | ظمآنة في واحة<br>بقلم أندريه طرييه                      |   |
| ٢٥٠  | ذات صيف<br>بقلم ميشال موسى                              |   |

|  |   |
|--|---|
| ٢٨ -   | ابن خلدون : المقدمة : ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .                           |
| ٢٩ -   | محمد كرد علي : عجائب اللهجات - مجلة مجمع اللغة العربية        |
| ٧ -  | ص ٥٢ - ص ١٢٨ - ١٢٢ .  |
| ٣٠ -   | محمد شوقي امين : جواز التعريب على غير اوزان العرب -           |
| مجلة مجمع اللغة العربية -  | ج ١١ - سنة ١٩٥٩ - ص ١١٩ - ٢٠٧ .                               |
| ٢١ -   | يوهان فك : العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب       |
| -  | ترجمة عبد العظيم النجار - مطبعة دار الكتاب العربي - القاهرة - |
| سنة ١٩٥١ -   | ص ٩   |
| ٢٢ -   | عبد القادر المغربي - السليقية في الكلام - مجلة مجمع           |
| اللغة العربية -  | ج ٩ - سنة ١٩٥٧ - ص ٧٩   |
| ٢٣ -   | يوهان فك - العربية - ص ١١٦                                    |
| ٢٤ -   | يوهان فك - المرجع السابق - ص ١٦٥                              |
| ٢٥ -   | يوهان فك - المرجع السابق - ص ١٦٩                              |
| ٢٦ -   | يرى الدكتور ابراهيم انيس ان اللغة العربية لغة موسيقية ،       |
| وان سبب ذلك يرجع الى هذه الظاهرة الفريدة التي مرت بها اللغة          |   |
| العربية ، الا وهي وجود ادب عربي قبل الاسلام مع ندرة القراءة والكتابة |   |
| مما جعل الادب ادب اذن لا ادب عين ، فاكسبت الاذان المران والتمييز     |   |
| بين الفروق الصوتية الدقيقة ، واصبحت مرهفة تستريح الى الكلام          |   |
| لحسن وقعه أو ايقاعه ، وتابى اخر لنبوه ، واصبح من المؤلفات التعبير    |   |
| عن المعنى القليل بالفاظ كثيرة . ولم يخرج عن هذه الموسيقى الا بعض     |   |
| المفكرين من الابداء امثال ابن المقفع وغيره في عصر الامون ممن تأثروا  |   |
| بما ترجم عن الفرس واليونان والهنود . ثم عادت الكتابة بعد هؤلاء الى   |   |
| الموسيقية ممثلة في الاسجاع والازدواج ، وظلت سوقها رائجة الى عهد      |   |
| قريب من عصرنا الحديث .   |   |
| « دلالة الالفاظ - ص ١٩١ - ٢٠٠ - ومستقبل اللغة العربية                |   |
| المشتركة ص ٥٩ » .  |   |
| ويتنبأ الدكتور ابراهيم انيس ان لغة الكتابة - بوجه عام - ستفقد        |   |
| اهميتها في التسجيل والتدوين ، وسيحل محلها التسجيل الصوتي             |   |
| حين تصبح ادواته في تناول الناس جميعا . « فالستقبل للسمع لا           |   |
| للعين .. ولا تشك ان السمع حينئذ سيصبح اكثر حساسية ، يميز             |   |
| دقائق الاصوات ومتباين النغمات ، مما سيؤدي حتما الى ان يصير الكلام    |   |
| اقرب الى الموسيقى . وهنا يمكن ان يقال ان الثقافة اللغوية قد عادت     |   |
| كلها الى الوسيلة الطبيعية وهي حاسة السمع ، لا تستعين الا بها ، ولا   |   |
| تحتاج الى ما اصطنعه الانسان من وسائل ناقصة كالكتاب والقلم « (دلالة   |   |
| الالفاظ مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٨ ص ١٨٩ - ١٩٠ ) وبذلك تعود للغة         |   |
| العربية موسيقيتها الاولى .   |   |
| وهذه اراء تحتاج الى مناقشة يضيق عنها المجال هنا .                    |   |
| ٣٧ - يوهان فك : العربية - ص ١٤٦                                      |   |
| ٣٨ - يوهان فك : المرجع السابق - ص ١٥٢                                |   |
| ٣٩ - توفيق الحكيم : زهرة العمر - كتاب الهلال - العدد ٤٧ -            |   |
| ص ١٢٢  |   |
| ٤٠ - المرجع السابق - ص ١٦٨   |   |
| ٤١ - عبد اللطيف حمزة : الادب المصري من قيام الدولة الابوية           |   |
| الى مجيء الحملة الفرنسية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ص ٢٥١    |   |
| ٤٢ - المرجع السابق - ص ٢٦٢   |   |
| ٤٣ - يوهان فك : العربية - ص ١٢٧ .                                    |   |
| ٤٤ - يحدد فاروق خورشيد ومحمود ذهني لغة السير الشعبية -               |   |
| وهي من اهم ما بقي لنا من اداب تلك الفترة - بأنها : تكاد تقرب الى     |   |
| لغة التخاطب عند أهل المدينة التي يمتزج فيها الاصل العربي بروافد      |   |
| شعبية من مختلف الشعوب المسلمة مع عاميات محلية تكونت بحكم             |   |
| الترج والاختلاط والتزاوج اللغوي . « فن كتابة السير                   |   |
| الشعبية : دار الثقافة العربية - القاهرة - سنة ١٩٦١ - ص ٢٠٠ » .       |   |
| ٤٥ - عبد اللطيف حمزة : الادب المصري - ص ٢٦٤ .                        |   |